بين جنة الإسلام وفردوس دانتى

موقع الفردوس وشكله :

يتكون الفردوس عند دانتى طوبوغرافيا من تسع سماوات فلكية : يتوزع أهل الجنة على السبع الأولى منها طبقا لدرجاتهم وأقدارهم ، لكن مقامهم الحقيقى فى « الإمبريوم » فوق السماوات الفلكية وهو المستوى الثابت الذى لا يتحرك أو الفردوس الإلهى بالفعل . ويتصورهم دانتى جالسين فى حلقات أو على درجات ومقاعد من نور على شكل دوائر كما لو كانوا يرسمون بصفوفهم وردة نورية صوفية هائلة يقع العرش الإلهى فى مركزها تحيط به طبقات الملائكة وتتأمله جموع الصالحين فى الفردوس .

ويقع هذا « الامبريوم » أو الفردوس الإلهى فى القدس السماوية التى تقوم فى الطرف الأعلى من خط عمودى يقع على القدس الأرضية ، فهى إذن امتدادها العمودى السماوى . وهناك تناسق دقيق بين عالمى الفردوس والجحيم ، ففى كل منهما عشر منازل للايحاء بوحدة المعيار الخلقى الذى تعتمد عليه أعدادهما عن طريق وحدة التصور المعمارى لأماكن الأبرار والأشرار ، إذ تتوقف درجة رفعتهم أو انخفاضهم على مدى سمو الفضائل التى يمثلونها ، كما أن مدى انحطاط الرذائل هو الذى يحدد فى الجحيم الدرك الذى يحتله من يتصفون بها ومدى عمقه ، وإن كانت كلها تحت أرض القدس .

فإذا تأملنا التراث الإسلامى وجدنا أن الجنة فيه تقع خلال السماوات الفلكية الآهلة بالملائكة والأنبياء والأولياء الذين يتوزعون عليها طبقًا لمقاماتهم ، وربما اجتمعوا لتذكر ما كان بينهم فى الدار الدنيا – وهذا التصور لا نظير له فى التراث المسيحى ، فلم يرد فى العهد القديم ولا فى الجديد أى ذكر للسماوات الفلكية على أنها مقام الصالحين فى الدار الآخرة[1] . فتحديد موقعها بأنه فى القدس السماوية التى تقوم على أقصى طرف من خط عمودى منتصب فوق القدس الأرضية عد ابتكارا أصيلا من دانتى مع أنه شائع منذ وقت مبكر فى التراث الإسلامى ابتداء من عصر البعثة إذ وردت بعض الأحاديث النبوية التى تشير لذلك . منها ما جاء عن كعب الأحبار من « أن الجنة فى السماء السابعة بإزاء بيت المقدس والصخرة لو وقع منها حجر لوقع على الصخرة » .

كما ورد عن نفس المحدث أن باب السماء الذى يقال له مصعد الملائكة يقابل بيت

---

(١) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليه ص ٢٢١/ ٢٢٢ .

المقدس ، وشاع هذا من كتب المعراج الإسلامية حيث نقرأ منها : « ولأن صخرة بيت المقدس تقابل باب السماء يقال إنه أقرب موضع من الأرض إلى السماء . وقيل لا ينزل ملك من السماء إلى الأرض إلا على الصخرة ، ولا يصعد إلى السماء إلا من الصخرة »[١] . وعلى أية حال فإن هذا التقابل الهندسى الدقيق لم يعد من ابتكار دانتى بعد أن عثر على أصله فى التراث الإسلامى المتداول .

أما النظام الكونى العام الذى يتحدد فى إطاره موقع الفردوس وشكله ودرجاته فإن أوضح تصور إسلامى له قد وجده الباحثون فى تراث ابن عربى الخصب ، وسنرى أنه لا يبعد كثيرا عما تقدمه مخطوطة المعراج المترجمة وإن كانت لا تتسم بالدقة الهندسية التى تتميز بها كتابات ابن عربى ، إذ يتمثل العالم : الفانى والباقى ، المادى والروحى ، على شكل دوائر هندسية ، سلسلة من الدوائر المحيطة التى تتسع تدريجيا وتندمج كل منها فيما تعلوها ، وما يعنينا منها الآن إنما هى الوحدات التى تقع بين الأرض والعرش الإلهى : وتشمل تصاعديا المستويات التالية :

الكرة الأرضية يحيط بها الماء ، ومن فوقه الهواء ، ومن فوقه الأثير حيث النار والظلمة ، ثم يبدأ بعد ذلك عالم الكواكب بنفس الترتيب التصاعدى فبعد دائرة الأثير تأتى سماء القمر وسماوات عطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل ، ثم سماء النجوم الثابتة التى تلتف حولها السماء العليا بدون نجوم أو سماء المحرك الأول ، وتسمى لدى العرب سماء الفلك الأطلس وهى توازى الإمبريوم عند دانتى . وعندها ينتهى العالم الفلكى ، وهناك بعد حدودها وفوق محيطها يقع العرش الإلهى محوطا بالملائكة حيث يشتد بهاؤه كمنبع ضوء أبدى .

ويجعل ابن عربى مقر الأرواح داخل هذا النظام الكونى فى الفراغ الهائل الواقع بين سماء النجوم الثابتة وسماء المحرك الأول ، أى أن سقف الجنة هو قبة سماء المحرك الأول وأرضها سطح الفلك المكوكب .

وفى المحيط اللانهائى الذى يفصل بين هذين المجالين يتصور ابن عربى ثمانية جنان على شكل دوائر يحيط كل منها بما دونها ، أو على حد تعبير الإمام الشعرانى « صورة مجاورة الجنان الثمانية لبعضها بعضًا صورة دوائر ثمانية جنة فى قلب جنة »[٢] ، وهذه الجنان هى :

---

(١) انظر : كتاب المعراج للقشيرى ، تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر – القاهرة ١٩٦٤ ص١٠٣ .

(٢) انظر : اليواقيت للشعرانى ، الجزء الثانى صفحة ١٧٠ .

١ – الوسيلة .	٥ – جنة المأوى .
٢ – دار المقامة .	٦ – جنة النعيم .
٣ – دار السلام .	٧ – جنة الفردوس .
٤ – جنة الخلد .	٨ – جنة عدن .

ولنقرأ فى فردوس دانتى الأبيات التالية لنرى مدى قربه من هذا التصور الإسلامى لأشكال الجنان :

« وإنه ليمتد بنفسه فى صورة دائرية حتى ليصبح محيطها بالنسبة للشمس نطاقا ذا اتساع شامل » .

« ولتنظر كيف يتسع محيط دائرتنا » .

« وإذا نظرت إلى الحلقة الثالثة » .

« ولكن انظر إلى هذه الحلقات حتى أبعدها » .

« وفى الجانب الآخر حيث تقطع الفجوات أنصاف الدوائر » .

« من حلقة لأخرى حتى هنا إلى أسفل »[1] .

فإذا عدنا إلى الجنان الثمانية عند ابن عربى وجدناها فى حقيقة الأمر سبعًا فحسب إذ أن أولاها – وهى جنة الوسيلة المحمدية – تنساب إليها جميعًا ، ووجدنا أن كل واحدة منها تنقسم إلى عدد كبير من الدرجات ، وكل درجة تنقسم بدورها إلى منازل وخوخات ، وبالرغم من أن العدد الشائع فى الآثار الإسلامية أن درجات الجنة مائة إلا أننا نجد ابن عربى يجرؤ أحيانا على إحصائها مثل دانتى فى عدد كبير فيقول :

« وتحتوى الجنة من الدرج التى فيها على خمسة آلاف درجة ومائة درجة وخمس درجات لا غير .. وقد تزيد على هذا العدد بلا شك .. والذى اختصت به هذه الأمة المحمدية على سائر الأمم من هذه الدرجات اثنتا عشرة درجة لا يشاركها فيها أحد من الأمم »[2] إلا أن هذه الدرجات تتجمع فى مائة تتركز بدورها فى عدد محدود من الأجناس لا يزيد على اثنى عشر جنس .

ومن الغريب أن شراح دانتى عندما أخذوا فى تحديد مراتب الفردوس عنده لم تخدعهم كثرتها الظاهرة فى مثل قوله :

---

(١) راجع الفردوس ، ترجمة د . حسن عثمان ، أبيات متفرقة من الأناشيد ٣٢/٣١ .

(٢) انظر : الفتوحات المكية ، الطبعة المحققة ، السفر الخامس ، ص ٧٢ .

« ومنعكسين عليه فى أكثر من ألف طبقة » .

ومالوا إلى حصرها فى اثنتى عشرة درجة كبيرة أيضًا[١] .

أما مخطوطة المعراج المترجمة فهى تقدم تصورًا كونيًا شديد الشبه بتصور ابن عربى ودانتى فتملأ الفراغ بينهما ؛ إذ يفهم منها أن الرسول عندما يرقى إلى معارج السماء من بيت المقدس يمر على عوالم أثيرية متعددة قبل أن يصل إلى السماء الأولى فيرى حامل اللوح المحفوظ ومالك خازن النار الذى يشرح له كيفية تكونها وألوانها ؛ أى أنه يمر بدوائر الماء والهواء والنار والظلمة قبل أن يلج السماء الأولى تمامًا كما يتصور ابن عربى ، وبعد أن يخترق السماوات الفلكية يصل إلى سماء العرش ويشاهد وحده أعظم الرؤى الكونية ؛ ثم لا يلبث أن يصحب جبريل مرة أخرى ليشاهد الجنان المتداخلة فى دوائر ، أوسعها دائرة جنة عدن وبداخلها الجنان الأخرى ؛ جنة فى قلب جنة ، مثلما تصورها ابن عربى ودانتى، وإن اختلفت الأسماء قليلا، وهى هنا سبع جنات، فبعد جنة عدن تأتى على التوالى دار القرار ودار السلام وجنة المأوى وجنة الخلد وجنة الفردوس وجنة النعيم وهى أسماها وتقع فى قلبها ، إذ هى قلعة الجنان وتشرف عليها جميعًا وفيها بيت الله المعمور، وهى مقسمة أيضًا إلى مائة درجة وفيها شجرة طوبى وعندها سدرة المنتهى وتتم بعدها الرؤية الإلهية ، ثم يخترق الحجب ويعود أدراجه حتى يصل إلى السماوات الفلكية، وعندما يهبط إلى الأرض يوضح أنها سبع أرضين موازية بما فيها من جحيم ذى طبقات مثل منازل الجنة وطبقات السماء[٢]، حتى يتم التوازى بين العالمين بطريقة محكمة .

كما يستخدم دانتى فى تصوره للفردوس صورًا نموذجية أخرى حيث يتمثله على شكل روضة مسورة تضم مملكة أو عرشًا ملكيًا يشغل المسيح والعذراء فيها أسمى مكان ؛ إذ يقومان على هضبة يلتف حولها الأبرار ليتأملوا النور الإلهى ؛ ولهذا نظيره فى وصف ابن عربى للجنة ، فهى ليست عنده فى جملتها سوى بستان هائل مقسم إلى سبع درجات دائرية تفصلها عن بعضها الأسوار والجدران ، وهى دوائر نورية فيقول « وبين كل جنة سور يميزها عن صاحبتها » ويقول « يدور عليها ثمانية أسوار ، بين كل سورين جنة »[٣] ، كما نجد فى كتاب المعراج وصفًا تفصيليًا – فى الفصل الثلاثين – لجدران الجنة وأسوارها مثلما نجد عند دانتى :

---

(١) انظر : كتاب أسين بالاثيوس المشار إليها ص ٢٣٢ .

(٢) راجع ، عرض وثيقة معراج محمد فى الفصل التالى ، فصول د/ ٦/ ٧/ ١٠ إلى ٣٤ .

(٣) انظر الفتوحات المكية لابن عربى ، الطبعة المحققة – السفر الخامس – ص ٧١ .

« إذ أن هؤلاء هن الجدار الذى يقسم الدرجات المقدسة
إذ ستمتلئ هذه الحديقة ..
ألا فلتحلق بعينيك خلال هذه الروضة »[١] .

وأعلاها عند ابن عربى جنة عدن، «فهى قصبة الجنان.. بمنزلة دار الملك» و«جنة عدن هى قصبة الجنان وقلعتها وحضرة الملك» أمافى كتاب المعراج فجنة النعيم هى أسماها وقلعتها التى تشرف عليها جميعًا إذ فيها البيت المعمور مقر الحضرة الإلهية، ويقول دانتى :

« وإن هذه المملكة البهيجة الآمنة ..
ولكن انظر إلى هذه الحلقات حتى أبعدها
إلى أن تراها جالسة ؛ تلك الملكية التى يخضع
ويخشع لها كل هذا الملكوت .
« إن المليك الذى يستقر بفضله هذا الملكوت .. »[٢] .

كما أن فيها عند ابن عربى « الكثيب الذى يكون اجتماع الناس فيه لرؤية الحق تعالى عن النظر .. وعند رؤية الحق فى الكثيب الأبيض » وتحدثنا المخطوطة عن الهضاب البيضاء النورانية حيث تتم الرؤية ، فيقول دانتى :

« وكما ينعكس التل عند سفحه ..
عندما تفيض جناته بالعشب والأزهار .
وكأنى أذهب بعينى من واد مضىء إلى جبل »[٣] .

فنجد فى كل ذلك تلاقيا فى الصور لا ينتهى بنا إلى القول بأن دانتى كان ينسخ المأثورات الإسلامية ، فالشاعر العظيم لا يمكن أن يفعل ذلك ، وإنما لتأكيد موقف آخر هو أنه يطلع عليها وتروقه ثم تتسرب مثيلاتها إلى صياغته ذات البنية الفكرية واللغوية المختلفة ، وعندما تتراكم هذه الصور فهى دليل قوى على حضور هذا العالم الذى صورته المأثورات الإسلامية فى خياله المبدع .

فإذا تركنا هذا المستوى الجزئى وانتقلنا إلى التصورات الكلية العامة وجدنا أن التصميم المعمارى للفردوس يتمثل عند ابن عربى فى نهاية الأمر فى سبعة محيطات تشكل سبع دوائر تتداخل بالتدريج ، وكل منها يتكون من مجموعة من الدرجات أو الصفوف

---

(١) انظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، نشيد ٣٢/ ١٩ – ٢٠ .
(٢) انظر : المرجع المذكور .
(٣) انظر المرجع المذكور .

والمقاعد التى تتجاور عدة آلاف ، ولم يكن الأمر يحتاج لاجتهاد كبير من قبل الباحثين حتى يربطوا هذا التصور الإسلامى بنظيره عند دانتى ، خاصة فى شكل الوردة الطوباوية الشهيرة وهى تتناقص فى محيطها من أعلى إلى أسفل حتى تصل للقلب الذهبى ، كذلك يتناقص محيط الدوائر الإسلامية من أعلى إلى أسفل طبقا لابن عربى الذى وإن لم يكن قد استخدم رمز الوردة على التحديد إلا أن رسمه لهذا الشكل يوحى بالتطابق الشديد بين التصورين على النحو التالى :

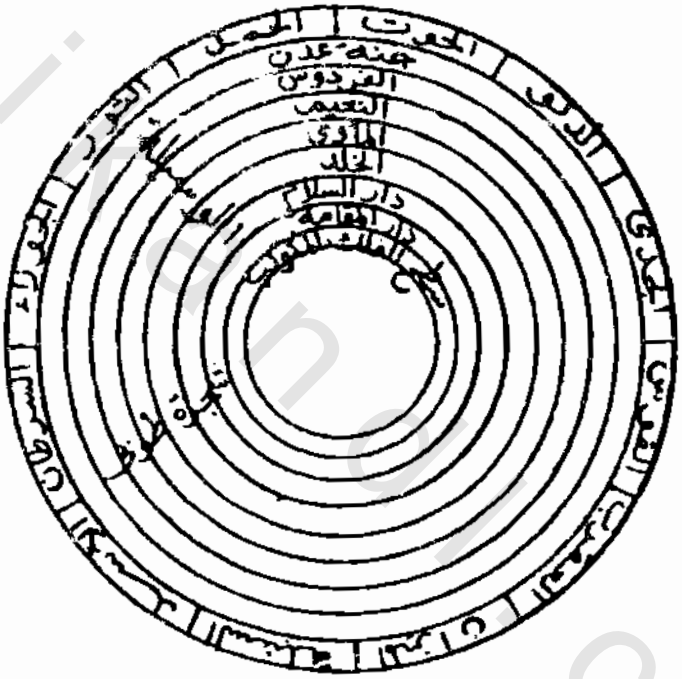

رسم ابن عربى للكرسى فى الجنة
كما جاء فى الفتوحات المكية – الجزء الثالث ص ٤٢٣

ولنقارن هذا الرسم برسم آخر لم يضعه دانتى بنفسه وإنما رسمه بعض شراحه لتمثيل وردة الطوباويين فى الفردوس كما صورها دانتى بأشعاره :

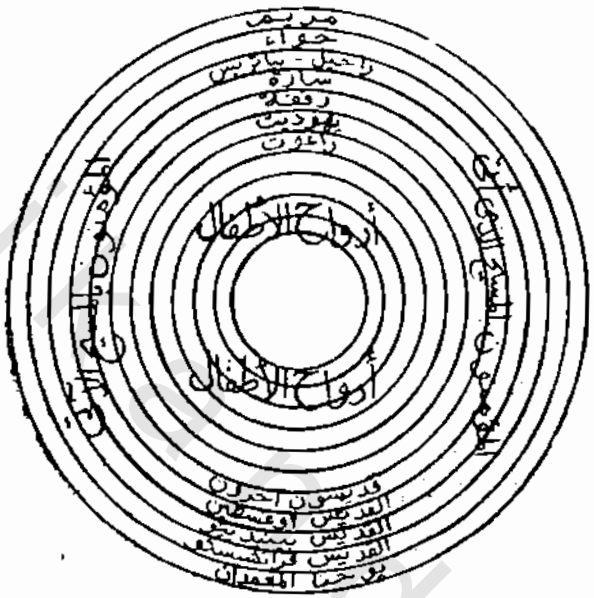

رسم « مانفريدى بورينا » لوردة الطوباويين فى فردوس دانتى

وسنرى عند تحليل هذه الوردة الطوباوية أنها قريبة من المأثورات الإسلامية فى تقسيماتها وصورها ، لكن لا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا التقارب بين عالم دانتى الثرى والفكر الإسلامى لا ينبغى أن يحمل على وجه التقليد ، فهذا ما حرص الباحثون دائما على نفيه[1] ، وإنما على أساس التمثل الواعى من قبل الشاعر الإيطالى للعناصر الإسلامية وتحويلها وبناء هياكل جديدة أسرت بروعتها القارئ الأوربى طيلة عصور عديدة ، خاصة وأن فكرة المحاكاة التى قامت عليها الكلاسيكية الجديدة وأسهم فيها الشراح الإيطاليون بنصيب وافر كانت تعتد بالتراث القديم كمنطلق ضرورى لأعظم التكوينات الأدبية والفنية المستحدثة .

(١) نشر فى هذا الفصل خلاصة كتاب أسين بلاثيوس الحجة الرئيسية فى الموضوع .

فإذا قارنا بعد ذلك ما أطلق عليه « أسين بالاثيوس » البناء الأخلاقى للفردوس » عند دانتى ، ويقصد به الوظيفة التى تؤديها هذه التقسيمات الهندسية بنظيره عند ابن عربى وجدنا اهتمامهما الشديد بالتفاصيل والتقسيمات الفرعية للمقامات والمراتب التى ينقسم إليها أهل الجنة طبقا لمعايير أخلاقية ، فابن عربى يقول :

« فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرم ومكروه إلا وله جنة مخصوصة ونعيم خاص يناله من دخلها .. فيتنزل الناس على حسب أعمالهم .. فمن كان أفضل من غيره كان له من الجنة أكثر .. ويقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ما تقتضى أحوالهم[١] » .

وهذا هو نفس معيار التفاضل عند دانتى إذ يقول :

« وبداخل هذا الملكوت الرحيب ، ما من مكان
يتأتى وجوده لأمر وليد الصدفة ..
إذ أن كل ماتراه بالقانون الأزلى مقرر
بحيث يتلاءم تماما كل شيء هاهنا .. »

« ولهذا فإن هذه الجماعة التى بكرت فى الذهاب إلى الحياة الحقة لم توجد هنا دون سبب يزيد أو يقل كما له فيما بينها هاهنا »[٢] .

والتفاضل عند ابن عربى على مراتب ، فقد يقع بالسن ، ولكن فى الطاعة والإسلام فيفضل الكبير السن على صغيره إذا كانا فى مرتبة واحدة من العمل ، ويفضل العمل بالزمان والمكان والأحوال . إلا أن المعيار الرئيسى للتفاضل عنده يقوم على حسب أعضاء التكليف ، ولهذا فإن أبواب الجنة ثمانية على عدد أعضاء التكليف التى تستخدمها النفس لممارسة الأفعال الفاضلة وهى : البصر والسمع واللسان واليدان والبطن والفرج والقدمان والقلب . ولعلنا نذكر أن هذا المعيار هو الذى استخدمه فى تحديد أحقية الإنسان لمراتب النار سلبًا ، إذ أن كلا من ابن عربى ودانتى حريصان على إقامة توافق متسق دقيق بين عالمى النعيم والجحيم فى الحياة الآخرة . فلأفعال كل من هذه الأعضاء إذن ثوابه فى إحدى الجنان . فيرى ابن عربى مثلا أن الموقع الذى يحتله كل واحد من أهل الجنة فى درجاتها الثمانية يستحقه لأحد أسباب ثلاثة :

---

(١) انظر الفتوحات المكية ، الطبعة المحققة . السفر الخامس ص ٦٤ – ٦٥ .

(٢) انظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، نشيد ٣٢ أيات ٥٢ – ٥٨ .

١ – إما بفضل من الله ونعمة دون أن تكون أعماله مؤدية لذلك ، وهذا يحدث فيما يسميه بجنة الاختصاص الإلهي » وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حد العمل وحدهم من أول ما يولد إلى أن يستهل صارخا إلى انقضاء ستة أعوام ، ويعطى الله من يشاء من عباده من جنان الاختصاص ما شاء .. ومن أهلها أهل الفترات ومن لم يصل إليهم دعوة رسول »[١] .

ونلاحظ أن هذه المرتبة كثيرة الدوران في الآثار الإسلامية وإن كان ابن عربي يضيف إليها تفصيلات أخرى .

ونرى تصور دانتي لها في الأبيات التالية :

« .. لا بجدارة من ذاته
بل بفضل آخر وبعض شروط ..
إذ أن هذه كلها أرواح محررة
من قبل أن يكون لها في ذلك خيار صحيح
وبمكنك أن تتبين هذا جيدا على وجوههم
وكذلك في أصوات طفولتهم »[٢]

وبذلك فقد وضع هؤلاء في درجات مختلفة دون جدارة من أعمالهم ، وأفراد لهم طبقا للرسم الذي رأيناه منازل خاصة تشبه جنة الاختصاص .

٢ – أما السبب الثاني فهو بالاستحقاق وجزاء لأعماله الصالحة وهي جنة الأعمال التي ينزل فيها الناس لقاء أعمالهم ، وهي شائعة تمثل المستوى المألوف في فردوس دانتي .

٣ – أما السبب الثالث – ولا يخلو من طرافة – فهو جنة الميراث عند ابن عربي وهي التي ينالها كل من دخل الجنة من المؤمنين وكانت أماكن مخصصة لأهل النار لو أنهم أطاعوا واستحوذوا عليها بأعمالهم ، وهذه درجة معروفة في التراث الإسلامي بأنها هي التي يورثها الله لمن يشاء من عباده ، ويفرد لها القرطبي في التراث الإسلامي مثلا بابًا عنوانه « ما جاء في ميراث أهل الجنة منازل أهل النار »[٣] ويشير إليها دانتي في قوله :

« ولتنظر كيف يتسع محيط مدينتنا

---

(١) نفس المصدر لابن عربي – السفر الخامس ص ٦٣ .
(٢) نفس المصدر لدانتي نشيد ٣٢ أبيات ٤٢ – ٤٧ .
(٣) انظر : مختصرة تذكرة القرطبي للأمام الشعراني ص ١٣٥ .

ولتشهد كيف امتلأت عروشنا »

إذ أن فى هذا طبقًا لتفسير شراحه إشارة إلى الأماكن الشاغرة فى الفردوس لعصيان بعض الأرواح واحتلال الصالحين لها بالميراث » .

على أن الخاصية المميزة للنوع الثانى هى أن أعمالهم مع ذلك لا توجب لهم بالضرورة هذا القدر من الثواب ، وإنما يظل دخول الجنة برحمة من الله لا بعد له فقط : فقد ورد فى الحديث « لا يدخل أحدًا منكم الجنة عمله » إذ أن ما فيها من النعيم والسعادة أسمى من أى عمل بشرى مهما كان ، ولذلك فلابد للمؤمنين من الشفاعة المحمدية . ولنقرأ مقابل ذلك هذه الأبيات عند دانتى :

« إن المليك الذى يستقر بفضله هذا الملكوت ..
بمثل هذه المحبة ، وبمثل هذه البهجة
بحيث لا تجترئ إرادة على أن تطلب المزيد
إذ أنه فى خلقه كل العقول على صورته البهيجة
يهبها النعمة بصور متفاوتة كما يروقه »[1] .

ونمضى فى تحليل مراتب الصالحين فى الجنة – طبقا لابن عربى – فنجد أنهم يتوزعون فى حالة الشهود فى الكثيب الأبيض على أربع طوائف :

١ – طائفة منهم أصحاب منابر وهى الطبقة العليا ، الرسل والأنبياء .

٢ – والطائفة الثانية هم الأولياء. وهم على بينة من ربهم، وهم أصحاب الأسرة والعرش .

٣ – والثالثة هم العلماء بالله ، وهم أصحاب الكراسى .

٤ – والرابعة وهم المؤمنون المقلدون فى توحيدهم.. ولهم مراتب يتفاوتون فيها أيضًا[2] .

وهذا قريب مما فعله دانتى فى توزيعه لمراتب الفردوس إلى حد كبير ، فهو يضع فى قمته الأنبياء والرسل من العهد القديم مثل آدم وموسى ، ثم يضع فيما يليهم أولياء الكنيسة وهم القديس بطرس والقديس يوحنا ، ومن بعدهم بقية القديسين ذوى الطرق الدينية مثل القديس فرانثيسكو والقديس بينيتو والقديس أوغسطين من علماء اللاهوت . ثم يضع فى نهاية الأمر بقية المؤمنين الذين اتبعوا هؤلاء .

ويتوافق دانتى مع ابن عربى حتى فى استخدامه لبعض المصطلحات مثل العروش والأسرة والكراسى والمراتب .

---

(١) انظر : فردوس دانتى . نشيد ٣٢ أبيات ٦١ - ٦٤ وكتاب أسين بالاثيوس المشار إليه . ص ٢٣٧ ..

(٢) انظر الفتوحات المكية – الطبعة المحققة ، السفر الخامس ص ٧٦/ ٧٨ .

ويميز ابن عربى داخل هذه الطبقات الأربعة بطريقة مبهمة نسبيًا بين أتباع الدين الإسلامى ومن تبعوا الأديان السماوية الأخرى فى عصورهم ، وإن كان لا يصل فى ذلك إلى حد التمييز الواضح بينهم كما فعل دانتى في الفردوس بين أتباع المسيح الذى أتى – أى المسيحيين الحاليين – واتباع المسيح الذى يأتى – وهم اليهود – على يمين وردة الطوباويين ويسارها بالتوالى وتتعدد الآثار الإسلامية التى تشير لبعض مظاهر من ذلك عند الحديث عن الأمم التى تدخل الجنة ومقاماتهم .

مثلما ورد عن على بن أبى طالب قال : «فى الجنة لؤلؤتان إلى جانب العرش ، إحداهما بيضاء والأخرى صفراء ، فى كل واحدة منهما سبعون ألف غرفة ، فالبيضاء لمحمد وأهل بيته .. والصفراء لإبراهيم وأهل بيته»[١] .

ولكن التشابه يصل إلى درجة كبيرة بين التصورين عندما نجد ابن عربى يضع الرسول ﷺ فى أشرف مكان فى الجنة « وهو المقام المحمود بهذا صحت له السيادة على جميع الخلائق .. وكان قد أقيم فيه آدم .. فإن ذلك المقام اقتضى له ذلك فى الدنيا وهو لمحمد فى الآخرة ، وإنما ظهر به أولا أبو البشر وهو الأب الأعظم فى الجسمية والمقرب عند الله » فآدم إذن أبو البشر حسيا ومحمد أبوهم روحيًا ، وهما لذلك قريبان فى الجنة عند ابن عربى ، وبنفس الطريقة نرى دانتى يضع فى وردته الطوباوية فى الفردوس آدم أبا البشر والقديس بطرس الزعيم الروحى للدين المسيحى قائلا :

إن ذينك اللذين يجلسان فى اسعد حال هناك فى العلياء
لشديد قربهما إلى امبراطوريتنا .. هما بمثابة الأرومة من هذه الوردة ،
وذلك الذى هو إلى اليسار قريب منها هو الأب الذى
يذوق الجنس البشرى شديد المرارة من تذوقه المتهور
وإلى اليمين ترى ذلك الأب العتيق للكنيسة المقدسة
الذى عهد إليه السيد المسيح بمفتاحى هذه الزهرة الجميلة[٢] .

وعندما حدد ابن عربى موقع البيت المعمور فى السماء قال : « وهو على سمت الكعبة كما ورد فى الخبر لو سقطت منه حصاة لوقعت على الكعبة » ثم رسم لوحة مربعة بين فى أعلاها درجات الجنة ومراتب أهلها طبقًا لثواب أعمالهم وفى أسفلها درجات الجحيم ومراتب أهلها أيضًا جزاء وفاقًا لأعمالهم ، فاتضح تطابق هذه الدرجات فى العدد والتوزيع

---

(١) انظر: كتاب العلوم الفاخرة فى النظر فى أمور الآخرة لابن مخلوف، طبع القاهرة عام ١٣١٧هـ، ص٥٩.
(٢) انظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد ٣٢ أبيات ٨ – ١٢٥ .

إيجابًا فى الجنة وسلبًا فى النار ، مما كشف عن التناسق الشديد فى رؤية ابن عربى للعالم الآخر طبقا للموروثات الإسلامية وقدم تصورًا مخططا منظما هندسيًا لا يضاهيه إلا التصور الذى قدمه دانتى بعد ذلك والذى فتن الباحثين باتساقه ونظامه ودقته حتى وقعوا على الوثائق الدالة على اطلاع دانتى على عناصر هذا التراث وإفادته الذكية منه .

وبالرغم من التراكم الوصفى الشديد فى قصة « معراج محمد » المترجمة إلا أن المعيار الخلقى الذى يتوزع الصالحون طبقًا له على درجات الجنة يتسق مع ما رأيناه عند دانتى وابن عربى لأنه هو المعيار الإسلامى الثابت ، فأنواع النعيم التى يراها الرسول فى الجنات السبع تشرح فى فصول متعددة[1] . تزخر بنفس الصور ، فمقاعد المؤمنين أيضا من نور ، وصور الملائك هى نفسها كما سنشرح فيما بعد ، لكن يبقى فرق هام بين مثل هذا النوع من التراث والأعمال الأدبية والفلسفية الكبرى كما تتجلى عند ابن عربى ودانتى ، وهو أن البنية الفكرية الأساسية للقصص الفولكورية فقيرة شديدة المحافظة ، إذ أنها لا تفتأ تكرر المسلمات المعروفة ثم تفرقها فى أوصاف متتالية نمطية مكررة تعتمد على المبالغة والتهويل ، أما الأعمال الكبرى فإنها على العكس من ذلك شديدة الجرأة على السياق الفكرى المألوف ، تدخل فيه عناصر تكسر نمطيته وتثريه وتخرج على إطاره وتطل به على آفاق جديدة ، ثم توظف ما تستخدمه من إمكانيات تصويرية بطرق متعددة وخصبة .

من هنا فإن شرح مصادر هذه الأعمال الكبرى فى أية مقارنات تحليلية لا يزيد عن تقديم إمكانية جديدة لفهم المواد الأولية التى تتكون منها هذه الأعمال دون أن يمس الأبنية الكلية المعقدة لها أو ينقص من قدر مؤلفيها ، ففهم وسائل العباقرة فى الإبداع لا يبطل سحرهم بل يدفعنا إلى مزيد من الإعجاب بهم .

وبهذا المنظور فحسب نتقدم خطوة أخرى فى التحليل المقارن للفردوس .

---

(١) انظر الفصول رقم ١٧ / ١٨ / ٣٠ / ٣٦ / ٤١ من كتاب المعراج الملحق بهذا البحث .

صور من الفردوس

١ - المرقاة

من المشهور فى التراث الإسلامى أن الرسول قد عرج به إلى السماء من بيت المقدس على مرقاة أو معراج درجاته من ذهب وفضة وزمرد ، وهو الذى تعرج عليه الأرواح إلى الجنة ، وقد أخذ الملائكة يفسحون الطريق للرسول عن يمينه وشماله حتى صعد إلى السماء ، ومعروف أيضًا مشهد صعود دانتى الشبيه بما سبق إلى حد كبير طبقًا لما جاء فى النشيدين الواحد والعشرين والثانى والعشرين من الفردوس ، فعندما وصل دانتى مع بياتريش إلى سماء زحل أو البهاء السابع كما يسميه ، رأى معراجًا يتجه إلى الأعالى هكذا :

« رأيت معراجًا يتجه إلى الأعالى ، بلون الذهب الذى يعكس
أشعة الشمس حتى لم تقو على متابعته عيناى
وكذلك رأيت على درجاته أنوارا كثيرة تهبط إلى أسفل
حتى ظننت أن قد انتثر عليه كل ما يتبدى فى السماء من الأنوار »[1]

ودعته بياتريش ليعرج عليه ، فرأى نفسه على قمة القمم ، أى صار فى رحاب أعالى السماء فى وقت أقل مما تضع فيه إصبعك فى النار وتسحبه .

ونفس هذه المرقاة هى التى نجد وصفها هكذا فى قصة المعراج المترجمة :

« أرانى جبريل سلمًا يمتد من السماء الأولى إلى الأرض
أولى درجاته من ياقوت ، وثانيتها من زمرد ، وثالثتها من لؤلؤ
ناصع البياض ؛ وكل درجة أخرى من حجر نفيس .. كلها محوطة
بالملائكة الذين يحفظونها ، . وكانت من البهاء والإشراق بحيث
يعشى نورها البصر .. وأخذ جبريل بيدى إلى الدرجة الأولى
وصعدنا إلى السماء فى لمح البصر »[2] .

ويأتى وصف هذا المعراج فى روايات إسلامية أخرى بأنه « لم تر الخلائق أحسن منه : له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب ، وهو من جنة الفردوس ، منضد باللؤلؤ ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة »[3] .

---

(١) انظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان - نشيد ٢١ أبيات ٨ - ٣٣ .
(٢) انظر : عرض كتاب معراج محمد الوثيقة الملحقة ١١ الفصل الخامس .
(٣) انظر : قصة الإسراء والمعراج لنجم الدين الغيطى طبع القاهرة عام ١٩٧٠ ص ٧٢/٧٣ .

وبالإضافة إلى هذا الوصف المحدد لمرقاة المعراج يهمنا أن نشير هنا إلى أن فكرة العروج إلى السماء فى ذاتها بلغت من الذيوع والانتشار فى التراث الإسلامى إلى الحد الذى نرى معه مفكرًا مثل الغزالى يقول بأن كل الأرواح السعيدة لها معراج إلى السماء تفرع فيه أبوابها وترى ما فيها من نعيم[١] ثم لا تخلو أية قصة من قصص المعراج من وصف هذه المرقاة ودرجاتها الذهبية وأنوارها المتلالئة السماوية .

٢ – اللقاءات :

طبقًا لكثير من الروايات الشائعة عن الإسراء والمعراج ورد أن الرسول قد التقى فى السماوات التى صعد إليها لا بعديد من الأنبياء فقط وإنما بجماعات من أتباعهم وبعض صحابته هو نفسه ، فقد ورد أنه رأى هارون فى السماء الخامسة يقص على جماعة من بنى إسرائيل بعض قصص التوراة ، وأصبح هذا فى قصة المعراج المترجمة مجالس سماع يحكى فيها الملائكة الأقاصيص تحت أشجار الجنة[٢] وعندما رأى موسى وإبراهيم لم يكتف بتحيتهم بل حاورهم وناقشهم فى مسائل دينية مثل الصلاة وغيرها ، وبالاضافة للأنبياء رأى شخصيات أخرى مثل مريم أم موسى ومريم أم عيسى فى السماء الرابعة ، كما رأى فى السماء السابعة جماعات من المسلمين فى ثياب بيضاء وآخرين فى ثياب قاتمة ، ورأى رجلا لا يعرفه قد غرق فى الضوء الذى يفيض من العرش الإلهى فسأل عنه جبريل فأخبره أنه مثال لما أعد الله من نور للصالحين من عباده ، ورأى بلال أول مؤذن فى الإسلام معرفه وهنأه ، ورأى أبا بكر الصديق الذى يصحبه – طبقًا لبعض الروايات – ليؤنسه فى السماء بعد أن يتوقف جبريل ويتركه وحده .

كل هذه المشاهد فى جملة أحداثها وخطوطها العامة نجد نظائرها عند دانتى الذى تمتلىء ملحمته بالشخصيات الثانوية ، فكل طبقة من السماء آهلة بسكانها الذين يتجمعون طبقًا للمهن التى كانوا يزاولونها فى الدنيا أو وفقًا لدرجاتهم فى الجنة ، فبعضهم من رجال الدين وبعضهم محاربون شهداء أو قضاة زهاد وهم يتناقشون أيضًا فيما بينهم ويحاورون دانتى عندما يرونه فى موضوعات لا هوتية وفلسفية ، وإن كان معظمهم من المسيحيين إلا أن منهم أيضًا يهودًا وغيرهم ، ومنهم الذكور والإناث والكبار والصغار وبعض أقرباء دانتى وأصدقائه .

---

(١) انظر : الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة للغزالى . طبع صبيح بالقاهرة عام ١٩٧١ ص ٧ وما يليها .
(٢) انظر . قصة المعراج المترجمة الملحقة كوثيقة فى النهاية ، الفصل الأربعين .

ولعل أهم لقاء متميز من هذه اللقاءات هو خروج الأنبياء جميعًا – كل من السماء التى يقيم عادة فيها – للترحيب مرة واحدة بالرسول والاحتفاء بمقدمه وعقد حوار حى معه ، تمامًا مثلما نزلت كل الأرواح الطوباوية من منازلها للقاء دانتى والترحيب به والحديث معه ثم عادت إلى مقرها بعد ذلك ، وهذا اللقاء مشترك بين جميع الروايات الإسلامية عن المعراج ومفصل فى القصة المترجمة من الفصل الثانى عشر حتى التاسع عشر .

٣ – الهداة :

كانت المهمة التى يقوم بها جبريل فى كل مراحل المعراج هى مرافقة الرسول عليه السلام فى الصعود من سماء إلى سماء وإخباره عمن بها من خلق الله والعمل على راحته ونصحه ، وهى نفس المهمة التى قام بها دليلا دانتى وهما فرجيل وبياتريش ، ففكرة اتخاذ هاد أو دليل أصيلة فى المعراج الإسلامى ، ولكننا نجد التفاصيل الدقيقة لقيامه بوظائفه خلال السماوات فى التراث الإسلامى قريبة مما نراه عند دانتى ، فجبريل قد يذهب فى عون الرسول إلى حد الدعاء له فى مثل قوله . « فلما رأى جبريل ما بى قال اللهم ثبته برحمتك وأيده بقوتك وأتمم عليه نعمتك » وعندما يعتريه الخوف يثبته بهذه الكلمات « لم تفزع يا رسول الله ؟ ابشر فإن الله قد درأ عنك الروعات والمخاوف كلها ، واعلم علمًا يقينًا أنك خيرته من خلقه وصفوته من البشر ، حباك بما لم يحبه أحدًا من خلقه .. ولقد قربك الرحمن عز وجل إليه قريبًا من عرشه مكاناً لم يصل إليه ولا قرب منه أحدا من خلقه قط ؛ لا من أهل السماوات ولا من أهل الأرض . فهناك الله بكرامته واجتباك به وأنزلك من المنزلة الأثيرة والكرامة الفائقة ، فجدد لربك بشكره ، فحمدت الله على ما اصطفانى به وأكرمنى »[1] .

ونجد نفس المشهد عند دانتى فى النشيد العاشر من الفردوس عندما يصل إلى دائرة الشمس وتهتف به بياتريش :

« ألا فلتحمد ، ألا فلتحمد شمس الملائكة
التى سمت بك إلى هذه الشمس المرئية بفضل من نعمتها
إلى مثل هذا الخشوع لم يتهيأ قط قلب بشر فان

---

(١) انظر . اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للامام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ؛ نشر دار المعرفة ببيروت عام ١٩٧٥ :الجزء الأول ص ٧٦ .

ولم يسارع لكى يهب نفسه لله وهو مفعم بالشكران[١] » .

كما تتناثر صلوات بياتريش وسان برناردو ودعائهم لدانتى فى مواضع أخرى عديدة .

بيد أن النقطة الدقيقة فى التشابه بين التراث الإسلامى والكوميديا الإلهية فيما يتصل بمهمة الهداة هى أن بياتريش تصحب دانتى إلى أمد معلوم فى معراجه ، ثم لا تلبث أن تتركه عندما يصلان إلى مرحلة محددة ليحل محلها سان برناردو ، وهذا هو نفس ما يحدث للرسول مع جبريل الذى لا يصحبه فى المرحلة الأخيرة عندما يصعد للعرش الإلهى ، وتمضى الرواية المذكورة فى وصف هذا المشهد على النحو التالى : « فلما أسرى بى إلى العرش وحاذيته دلى لى رفرف أخضر لا أطيق صفته لكم فأهوى بى جبريل فأقعدنى عليه ثم قصر دونى ورديديه على عينيه مخافة على بصره أن يذهب من تلالؤ نور العرش . فرفعنى ذلك الرفرف النورانى بإذن الله ورحمته إياى وتمام نعمته على[٢] » . وقريب من هذا الرفرف المضيء ما يصفه دانتى بعد ترك بياتريش له بقوله :

« هبطت من كبد السماء شعلة دائرية بهيئة إكليل
وأحاطت بها وأخذت فى الدوران من حولها »[٣] .

وهى الشعلة الدائرية التى تحمل العذراء إلى سماء السماوات مثلما تحمل مثيلتها الرسول عليه السلام إلى مقام العرش الإلهى .

وكذلك نرى أن إجابات بياتريش الدائمة على المشاكل العقائدية أو الفلسفية التى يثيرها دانتى عن السماوات المختلفة نجد نظيرًا واضحا لها فى مشاهدات المعراج الإسلامى حيث يشرح جبريل أو ملك الموت أو خازنا النار والجنة للرسول ما يريد أن يعرفه عن الحشر والنشر وأسرار الخلق وأخبار الدار الآخرة .

ولنستحضر على وجه التحديد المشهد الأخير من المعراج الإسلامى عندما يشرح جبريل للرسول فى السماء الأخيرة أنواع الملائكة ومراتبهم بقوله :

« فالذين رأيت فى بحور عليين هم الصافون حول العرش إلى منتهى السماء السادسة ، وما دون ذلك هم المسبحون فى السماوات والروح رئيسهم الأعظم ..فقلت يا جبريل : فمن الصف الأعلى الذى فى البحر الأعلى فوق الصفوف كلها الذين أحاطوا بالعرش واستداروا حوله ، فقال جبريل يا رسول الله : إن الكروبيين هم أشرف الملائكة وعظماؤهم

---

(١) انظر : الفردوس ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد العاشر أبيات ٥٢–٥٨ .

(٢) انظر : اللالىء للسيوطى ، الطبعة المشار إليها ص ٧٤ .

(٣) انظر : الفردوس ، النشيد ٢٣ أبيات ٩١/٩٣ .

ورؤساؤهم[١] » فإذا قارنا هذا بالشرح الطويل الذى يضعه دانتى على لسان بياتريش عند وصولهم للسماء التاسعة عن صفوف الملائكة ومراتبهم وطبيعتهم أدركنا التطابق بين التصورين فى مثل قوله :

« من جوه إلى جوقة سمعتهم يترنمون بالهوشعنا صوب النقطة الثابتة التى أبقتهم هى أماكنهم .

وتلك التى أدركت ما يجول بخاطرى من هواجس الشك قالت :

لقد أظهرت لك الدائرتان الأوليان الملائكة السرافيين والكروبيين[٢] » .

ثم تمضى بياتريش لتوضح له أن هؤلاء الكروبيين هم أسمى الملائكة لأنهم يحتلون الصفوف الأولى المحيطة بالعرش متقدمين على من سواهم من الملائكة .

أما فى قصة المعراج المترجمة فإننا نجد هؤلاء الهداة يقومون بوظائفهم بشكل متسق متوازٍ مع هداة دانتى فى الكوميديا بأسرها ، فإذا كان الذين قاموا بمهمة إطلاع دانتى على أسرار الجحيم والمطهر والفردوس فرجيل وماتيلدى وبياتريش وسان برناردو فإن هداة الرسول عليه السلام طبقًا لهذه الرواية هم ملك الموت وإسرافيل ورضوان ، ومن قبلهم ومعهم جبريل[٣] ، فالأول يشرح له كيف ينزع الأرواح من العباد ويحملها إما إلى الجنة أو النار والثانى يوضح له كيفية خلق النار ومن هم أهلها والثالث يريه بأمر الله الأرضين السبع وما فيها من عجائب أما جبريل فيصحبه فى كل السماوات ويطلعه على الجنان ويريه عجائب الملكوت الأعلى ، مما يقدم دليلا ملموسًا على استفادة دانتى من عناصر التراث الإسلامى فى تصميمه لملحمته الخالدة ، مع اختلاف الأدوار والأغوار بين المجالين بطبيعة الحال ، لكن تظل صورة الهداة المتعددين ، وبعض مواقفهم وأقوالهم المحددة ، نقاطا يتضح فيها التحام الكوميديا الإلهية بالموروثات الإسلامية .

٤ – نقش على الباب :

تروى قصة المعراج المترجمة أن الرسول عليه السلام عندما دخل الجنة وجد مكتوبا على بابها من الداخل هذه الكلمات « أنا الله لا إله إلا أنا ، وكل من قال لا إله إلا الله

---

(١) انظر . اللالىء للسيوطى ، الطبعة المشار إليها ، ص ٧٧ .

(٢) انظر الفردوس ، نشيد ٢٨ أبيات ٩٥ ، ٩٩ وانظر كتاب أسين بالاثيوس . ص ٥٠

(٣) انظر : كتاب معراج محمد الوثيقة المنحقة ، فصول ٦/٧/٨/١٠/١١/٢٨/٢٩ .

محمد رسول الله فقد عصم نفسه من النار ولن يدخلها جزاء ما ارتكب من الخطايا[١] » . فنتساءل عند قراءتها ألم يكن من الأجدر بها أى توضع على باب النار ؟ إذ أنها لا تشير إلى شيء فى الجنة ونعيمها ، بل إلى الدرع الواقى من الجحيم وهو الشهادة . وقبل أن يكتشف هذا النص قرأ الباحث الكبير « أسين بالاثيوس » الأبيات التالية لدانتى فى الجحيم :

« هنا الطريق إلى مدينة العذاب .. هنا الطريق إلى القوم الهالكين
لقد حركت العدالة صانعى الأعلى وخلقتنى القدرة الإلهية
والحكمة العليا والحب الأول .
لم يخلق قبلى شيء سوى ما هو أبدى ، وانى باق إلى الأبد »

هذه الكلمات رأيتها مكتوبة بلون داكن على باب (الجحيم)[٢] » .

فرأى فيها ملمحًا قويًا يشير إلى بعض عناصر التراث الإسلامى مما كتب على جبين بعض أهل النار وكان من السهل على دانتى أن ينقله ليضعه على باب النار مجاراة لعادة أهل العصور الوسطى فى كتابة الشعارات على الأبواب .

ويصدق حدس « أسين بالاثيوس » فى هذا الموضع كما صدق فى غيره ، إذ نعثر على النص السابق الإسلامى منقوشا على باب الجنة وهو أشبه ما يكون مناسبة لأن يوضع على باب النار ، فكأن دانتى قرأ هذا النص فيما قرأ، ونقله ليضعه فى مكانه الملائم ، وظل خاضعا فى تصوره للمعنى الإسلامى فى البيت الأخير الذى يتصف فيه الله نفسه بأنه الأول والآخر، وفى دلالة نص دانتى على رحمة الله وعدالته وحبه ما يشير كذلك إلى أن النجاة من هذه النار ميسورة قريبة ، وهذا نفس مايؤكده النص الإسلامى الذى يكتفى من الإنسان بالاعتراف بالله ورسوله كى يعصم نفسه من أهوال الجحيم مهما ارتكب بعد ذلك من الخطايا والموبقات. فعملية النقش نفسها وفحوى النصين يؤكدان تلاقى الصورتين .

٥ - مهرجان الأضواء والأناشيد :

أبرز الدارسون لأدب دانتى الهوة الساحقة التى تفصل بين تصوره للفردوس ، وتصور سابقيه من الغربيين الذى كان يتسم بالفقر الشديد والخيال الصبيانى عن سماء مادية بشرية . ولكن دانتى قد استغل كل الظواهر المرهفة الشاردة فى الطبيعة لتصوير مهرجان

---

(١) انظر معراج محمد الوثيقة المترجمة الفصل ٣٣ .
(٢) انظر الجحيم النشيد الثالث أيات ١ - ١٠ وكتاب أمين بالاثيوس ص ٧٢ .

من الظواهر تصبح به الحياة السماوية عيدا إلهيا من الصوت والضوء . فالفردوس عند دانتى هو مملكة الروح التى تسمو على الماديات الخشنة ، وليس هناك مثل النور والموسيقى فى رهافتهما ما يفتح عوالم هذه المملكة الروحية .

ونفس هذه العناصر التشكيلية هى التى تتكون منها صورة الجنة فى التراث الإسلامى ، وهى الغالبة على مشاهد الرسول فى معراجه خلال السماوات ، فكل ما فيها يقدم رؤية ضوئية تتصاعد وتتكثف حتى تصل إلى ذروة البهاء فى المراحل الأخيرة ، وفى الجنة يتخلل النور كل شىء حتى تفقد الأجسام ماديتها ونستطيع اختراق الأسوار والقصور لنرى ما يدور فى أى مكان ، فالشفافية وشدة الضوء – بلا أذى – هما صفة الجنة ، إذ أنها كما ورد فى الأحاديث بيضاء ، « وأرضها مرمرة بيضا من فضة كأنها مرآة .. قال ابن عباس ، قلت فما نورها ؟قال : ما رأيت الساعة التى تكون فيها قبل طلوع الشمس ، فذلك نورها إلا أنه ليس فيها شمس ولا زمهرير[1] » وفى حديث آخر عن الجنة : « هى ورب الكعبة نور يتلألأ ..وإن فيها لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ، فإذا كان ساكنها فيها لم يخف عليه ما خلفها » و « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتى تليها على أضوأ كوكب درى فى السماء ، وعلى كل واحدة من الحور العين فيها سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب » أما الأناشيد الموسيقية الرائعة فى الجنة فحسبنا أن نورد عنها بعض الآثار مثل : عن أبى هريرة قال : إن فى الجنة نهرا طول الجنة حافتاه العذارى قيام متقابلات ، يغنين بأصوات حتى يسمعها الخلائق ، ما يرون فى الجنة لذة مثلها . فقلنا يا أبا هريرة . وما ذاك الغناء ؟ قال : إن شاء الله التسبيح والتحميد والتقديس[2] » ولهم سماع أعلى من هذا ، حيث تغنى الملائكة وداود صاحب المزامير الشجية بصوته الرخيم العذب ، وحتى الريح تحرك أوتارا فى الجنة تحمل أعذب الألحان وأشهاها .

أما أنوار المعراج فإن تخطيط السماء نفسها يعتمد أساسا على الألوان والأضواء الباهرة ، والملائكة الذين يعمرونها – بالرغم من شكلهم البشرى أحيانا وأحجامهم العملاقة وأعضائهم المتعددة وأجنحتهم المتكاثرة – إلا أن الطابع الغالب على صورهم هو الضوء الذى يشع منهم والذى كثيرًا ما يعشى أبصار مشاهديه . فكل مخلوقات السماء نورية وسكانها غارقون فى بحار الضوء والبهاء .

---

(١) انظر : هادى الأروح إلى بلاد الأفراح لابن القيم الجوزية ص ١٤٠ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٥٠ فصل سماع الجنة وغناء الحور وما فيه من الطرب .

أما الأصوات المنبعثة منهم فهى تراتيل وأناشيد تسبح دائما بحمد الله وتثنى عليه فى جلال مهيب وموسيقى علوية رائعة يهتز لها الملكوت الأعلى .

وإذا كانت هذه هى الخطوط العامة لسيطرة الضوء والصوت على صور الجنة الإسلامية وفردوس دانتى فإن هناك بعض الظواهر الخاصة المتصلة بهذا لمجال تؤكد التقاء دانتى مع الموروثات الإسلامية واستيعابه لها ، منها صورة اشتداد الضوء حتى يعشى البصر ، ولنقرأ فى رواية إسلامية واحدة تكرار هذه الصورة على النحو التالى :

« إن الله أعطانى عند ذلك من الأبصار مثل قوة أهل الأرض وزادنى من عنده ما هو أعلم به ومن على بالثبات وحدد بصرى لرؤية نورهم ولولا ذلك ما استطعت النظر » « رأيت من الملائكة ما تحار أبصار الناظرين دونهم ، فنبت عيناى عينهم لما نظرت من شدة تلألؤ نورهم » .

« فلما نظرت إليه صار بصرى دونه حتى ظننت أن بصرى قد ذهب من شدة نور ذلك البحر حتى رددت يدى على عينى » « فلما نظرت إليه اسود بصرى وغشى على » « فلولا أن الله أيدنى بقوته لتخطف نورهم بصرى ، ولكن درأ عنى وهج نورهم وحدد بصرى لرؤيتهم » .

« فلما نظرت إليه كاد شعاعه يخطف بصرى حتى جعلت لا أبصر شيئًا كأنى إنما أنظر إلى ظلمة لا إلى نور» « ورد جبريل يديه على عينيه مخافة على بصره أن يذهب من تلألؤ نور العرش» « فحار بصرى دونه حتى خفت العمى فغمضت عينى فرد الله بصرى فى قلبى[1] » .

ويتكرر نفس هذا المشهد فى فردوس دانتى أكثر من عشر مرات – كما يحصيها أسين بالاثيوس – وبنفس الكلمات تقريبا ، ونوردها هنا ليتضح قرب العالم الذى يصفه دانتى من الأفق الإسلامى إذ يقول فى مواضع متفرقة :

– واتجهت عيناى بكلتيهما إلى بياتريش ، ولكن أنوارها سطعت أمام باصرتى ، حتى لم تقويا لأول وهلة على النظر إليها .

– إيه أيها السناء الحق للروح القدس ، كيف تألق بغتة أمام عينى ، حتى لم تقويا وهما مبهورتان على شهوده .

– ثم استردت عيناى بفضلها القدرة على أن تنظر إلى العلياء .

---

(١) انظر : لآلىء السيوطى – جـ ٢ ص ٦٧ وما بعدها وكتاب أسين بالاثيوس الذى يتتبع هذه الصور باستقصاء علمى شديد ص ٤٦/٤٧ .

– وكمن يشخص ببصره ، ويجهد نفسه لكى يرى الشمس وهى تنكشف قليلا ، وفى سعيه لكى يرى يصبح غير قادر على الرؤية .

هكذا أصبحت أمام هذا القبس الأخير .

– ومن خلال النور المتألق شع الجوهر المنير متلألئا فى عينى ، حتى لم أقو على احتمال بهائه .

– رأيت نقطة يشع منها نور شديد التألق ، حتى لينبغى إغلاق العينين اللتين يسطع عليهما ، بما واتاها من الحدة الفائقة .

– وكبرق خاطف يزيغ من قوى الإبصار : حتى ليحرم العينين من قدرتهما على رؤية أكثر الأجسام ضياء .

هكذا أحاط بى نور ساطع وتركنى مغشى فى نقاب من ضيائه ؛ حتى لم أعد أستبين بنفسى شيئًا .

– إذ أن بصرى حينما أضحى صافيا ، أخذ يتغلغل رويدًا رويدا فى شعاع النور الأسمى ، الذى هو النور الحق فى ذاته .

ومنذ تلك اللحظة فصاعدا صارت مشاهدتى أعظم من كلامنا الذى يعجز أمام هذه الرؤية .

– وأعتقد أن بصرى كان سيتولاه الزيغ من حدة ذلك الشعاع الباهر الذى احتملته ، لولا أن عينى حادتا عنه .

وأذكر أنى بهذا قد أصبحت على احتماله أعظم قدرة ، حتى إنى وصلت بين رؤيتى والخير اللانهائى (وهذه هى الرؤية القلبية) .

– أيتها النعمة الفياضة التى اجترأت بفضلها على أن أسدد عينى إلى النور الأبدى حتى استنفدت هناك كل إبصارى »[1] .

٦ – ما لا يوصف :

من العبارات المألوفة المتكررة فى قصة المعراج الإسلامية ما يتردد كثيرا على لسان الرسول ﷺ من أنه رأى ما لا يمكن وصفه ، أو ما لم يؤذن له فى وصفه ؛ وهذا طبيعى فى وصف عالم الغيب الذى لا تتصل معطياته بالتجربة الحسية التاريخية المولدة للغة ،

---

(١) انظر الفردوس : أناشيد ٣/ ١٤/ ٢٣/ ٢٥/ ٢٨/ ٣٩/ ٣٣ على التوالى وانظر كتاب أسين بالأنيوس المشار إليه من قبل .

فلا مناص عندئذ من أن تقصر الوسائل التعبيرية المألوفة فى الحياة اليومية عن الإحاطة بكل جوانبه وأن يجد الراوى نفسه مضطرًا من حين لآخر إلى التنبيه على هذا القصور بمثل تلك العبارات ، خاصة وأن قدرا كبيرا من هذه الأوصاف يرد فى روايات موضوعة لم يملك أصحابها الاقتدار اللغوى الكافى لابتكار وسائل جديدة فيلجأون إلى هذه الحيلة كطريقة للمبالغة وفتح المجال أمام الخيال لتصور شىء غير معهود أو الإغراق فيما هو معهود ، أما الحيلة الأخرى عما لم يؤذن به فهى جزء من اشاعة جو الأسرار الغامضة فى المناخ العام للرواية حتى تؤتى التأثير المطلوب .

فإذا تتبعنا بعض نماذج لهذه الوسيلة التصويرية فى روايات المعراج الإسلامية وجدنا منها ما يلى :

« وأمره فوق وصف الواصفين وما تلهج به ألسنة الناطقين » .

« وهم أعظم شأنا من أن أطيق صفتهم لكم » « أمر عظيم لا يناله الألسن ولا تبلغه الأوهام » « فرأيت منه ما أعجز عن صفته لكم » « فرأيت من شعاع تلألؤه أمرا عظيما لو جهدت أن أصفه لكم ما استطعت ذلك » .

« وما يوصفون بشىء إلا وهم أعجب ، وأمرهم أعظم من أن تحيط به الصفة »[1] .

ونجد نفس هذه الوسيلة التصويرية عند دانتى ، مرة فى مقدمة الفردوس إذ يقول :

« وشهدت أشياء لا يقوى على وصفها ولا يعيها من يهبط من العلياء » .

وخمس مرات أخرى فى أناشيد مختلفة . فيقول عند دخوله دائرة الشمس :

« ومهما استنجدت بالعبقرية والفن والتجربة فما كنت
لأعبر عنه بما يمكن تصوره أبدا » .

وعندما ينظر إلى بياتريش فيجدها فائقة الجمال ويعترف بعجزه عن وصفها ، ويتوقف عن ذلك توقف الفنان عند منتهى قدرته :

« ولا يتجاوز الجمال الذى شاهدته إدراكنا فحسب ..
بل إنى فى هذا الموضع معترف بهزيمتى .. » .

وكذلك حين رأى العذراء مارية تشع نورها الذى غلب سائر الأنوار أعلن عن عجزه عن وصف ما شهده من الجمال الرائع بقوله :

« ولو كان لى فى الكلام ثروة كما فى الخيال ، لما جرؤت

---

(١) تنظر : اللآلىء المصنوعة للسيوطى ، الجزء الأول ص ٧٢ وما يليها . وكذلك كتاب أسين بالانيوس المشار إليه من قبل ص٤٤ .

على أن أحاول التعبير عن أدنى قدر من مباهجها »[١] .

أما العبارة الأخرى التى تغلف المشاهد بضباب الأسرار وتلفها فى إطار الإبهام فتجد منها فى الروايات الإسلامية مثلا : « لم يؤذن لى أن أحدثكم عنهم » .

« فجعلت أنظر بقلبى نحو ما كنت أنظر بعينى نورا نهيت أن أصف لكم ما رأيت من جلاله » « ثم أفضى إلىّ من بعد هذا بأمور لم يؤذن لى أن أحدثكم بها »[٢] .

ولا نتوقع من دانتى أن يصرح بأنه لم يؤذن له ، وإنما يشير إلى ذلك إشارة فى مثل قوله :

« وهنا أعوز خيالى الرفيع قدوره ، ولكن رغبتى وإرادتى
كانتا قد سارتا معا ، كعجلة تدور بحركة واحدة »
وحتى فيما يمكننى أن أذكره منه ، سيكون قولى الآن
أعجز من لفظ طفل يبلل لسانه من الثدى »[٣] .

فهناك إذن ما لا يمكنه أن يذكره ، لا بسبب عجزه عن البيان ، فهذا العجز قائم على أية حال ، وإنما لسبب آخر لابد وأن يتصل بما يباح وما لا يباح له أن يخوض فيه .

وقد يقال إن هذه الصيغ من الوسائل التعبيرية المألوفة التى لا تحتاج إلى تأثير من مجال ثقافى آخر ، ولا تنهض دليلا على ارتواء دانتى من النبع الإسلامى ، ولو كانت بمفردها لصح هذا الاعتراض ، ولكنها تدخل فى سياق ثبت أنه مرتبط بالمأثورات الإسلامية فتكسب دلالة ليست لها فى ذاتها وتصبح إشارة أخرى إلى قوة ترسب هذه المادة وشدة تمثل دانتى لها حتى لتعزز فى اللغة الجديدة نفس النوازع التى أفرزتها فى الأصل الإسلامى ، خاصة وأن دانتى كان ينتقل بالإيطالية من لهجة عامية إلى مرتبة اللغة المستقلة ، وهى مرحلة تشتد فيها الحساسية اللغوية لتقبل الأنماط والصيغ التى لم تكن مألوفة فيها نتيجة للتلقيح الفكرى المخصب من مجالات ثقافية أخرى .

٧ – صورة النسر والديك :

إن صورة النسر الهائل الذى تتكون منه آلاف الملائكة المتجمعين وقد عرضت أمام عينى دانتى الذاهل فى سماء جوبيتر أو المشترى قد جعلت جميع شراحه يهتون أمام

---

(١) انظر : الفردوس . ترجمة الدكتور حسن عثمان . أناشيد ١ ، ١٠ ، ٣٠ ، ٣١ .
(٢) انظر : لآلْ السيوطى ، نفس الموضع السابق .
(٣) انظر : الفردوس . نشيد ٣٣ أبيات ١٠٦ ، ١٠٧ .

جمالها الغنى بما فيه من أصالة ورمزية لم يسبقه إليها أحد ممن عالج فى الأدب المسيحى مثل تلك الرؤى السماوية ، وكان الحدس بأصل هذه الصورة الإسلامى مما آثار الباحثين الأوربيين على المستشرق الأسبانى « أسين بالاثيوس » صاحب نظرية التأثير الإسلامى ، وجاءت وثيقة المعراج لتقول الكلمة الحاسمة فى صدق هذا التأثير . ولنقرأ أولا نموذج هذا النسر العجيب عند دانتى قبل أن نرى نظيره الإسلامى . يقول :

« وكما تتطاير شرارات لاعداد لها ، بالضرب على الأخشاب المحترقة ..
بدا لى عندئذ أنه قد نهض أكثر من ألف نور .. وصعد بعضها
فوق بعض ، كما قدرت لها الشمس أن تشعلها
وحينما سكن كل منها فى موضعه رأيت رأس نسر ورقبته
تتمثلان فى تلك الأنوار المتلألئة »
بجناحين ممدودين بدت أمامى الصورة الجميلة
التى صنعتها الأرواح المتآلفة المغتبطة بنعيمها العذب ..
وتبدت كل منها كأنها ياقوتة صغيرة ، واشتد فيها
توهج أشعة الشمس حتى أصبحت منعكسة فى عينى ..
وكالبازى الذى يتخلص من غمائه فيحرك رأسه ويعمد
إلى خفق جناحيه ، مبديا تحفزه ومجملا نفسه
هكذا فعلت الصورة المباركة التى خفقت جناحيها
وهى مسوقة بالكثير من رغائبها ..
وكالقبرة التى تحلق فى الهواء ، مفردة لأول وهلة ، ثم
تصمت راضية نشوى بختام شدوها العذب
هكذا مضت أرواح مباركة فى طيرانها وهى تشدو
بداخل هذه الأنوار ..
وكان قول « أحبو العدالة » أول فعل واسم فى اللوحة كلها
وكان قول « يامن تحكمون الأرض آخر كلماتها »
إذ رأيت النسر كما سمعته يتكلم ، ويترنم صوته بكلمة
« أنا » و « ملكى » بينما أراد بهما نحن وملكنا »[1] .

---

(١) الفردوس : أناشيد ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

فها نحن نرى أن نسر دانتى يتكون من وجوه وأجنحة كثيرة ، يشع منها نور باهر ، ويترنم بأغان حلوة قد أخذت كلماتها من الكتاب المقدس ، وهو يدعو الناس إلى حب العدالة ، وقد اجتمعت فى تكوينه أرواح الطوباويين إذ أن وحدته الشخصية ليست سوى نتيجة لتجميع كائنات أخرى فى نسق فنى بديع ، ثم هو يخفق بجناحيه عندما يترنم ويشدو ، ثم لا يلبث أن يسكن ويهدأ بعد ذلك .

وقد قارن « أسين بالاثيوس » هذه الصورة بعنصرين من التراث الإسلامى . أحدهما : « الديك » الذى ورد فى روايات المعراج هكذا : « رأيت فى السماء ديكا له زغب أخضر وريش أبيض كأشد خضرة وبياض رأيتهما قط ، وإذا رجلاه فى تخوم الأرض السابعة السفلى ورأسه تحت عرش الرحمن له جناحان فى منكبيه إذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب ، فإذا أخفق بهما وصرخ بالتسبيح لله يقول : سبحان الملك القدوس .. فإذا فعل ذلك سبحت ديكة الأرض كلها وخفقت بأجنحتها ، فإذا سكن ذلك الديك فى السماء سكنت الديكة فى الأرض »[1] .

وثانيهما : ذو طبيعة روحية تتصل بعالم الملائكة ؛ إذ تقول الرواية :

« فنظرت أمامى وإذا أنا بملك على صورة الديك ، اسمه ميكائيل ، عنقه تحت العرش ، ورجلاه فى تخوم الأرض ، ورأسه أفرق أبيض أشد ما يكون البياض نورا ، عرفه أخضر وأصفر ، وهو ساجد يقول فى سجوده : سبحان الله العظيم . فإذا سبح ذلك الديك سبحت ديوك الأرض وإذا سكت سكتوا .. فلم أزل منذ سمعته مشتاقا إليه »[2] .

وتجىء مخطوطة المعراج التى يرجح اطلاع دانتى عليها لتؤكد هذه الصورة فى عدة مواضع ، وبأشكال شديدة القرب مما رأينا عند دانتى ، مما يقطع السبيل إلى أى شك ، ففى الفصلين التاسع والتاسع والعشرين يأتى وصف هذا الديك العظيم الذى يفوق أى نسر ، إذ يبلغ جناحاه أقطار السماوات والأرض ، وقد تلألأ بالألوان والأضواء ، وأخذ ينشد بالتسبيح فى أجواز السماء فتتجاوب معه ديكة الأرض صياحًا وسكوتا ، ثم يوصف بعد ذلك بأنه من ملائكة الله ، وتتوزع أناشيده العذبة الرائعة على ساعات الليل وأوقات الفجر والسحر ، وتشدو على إيقاعها ديوك الأرض وطيورها ، ثم يختلط فى فصول أخرى بالطبيعة الملائكية ذات الصور العديدة والأشكال المتنوعة مما أغرى فنانا مثل دانتى أن

---

(١) انظر : لآلىء السيوطى ، الجزء الأول من الطبعة المشار إليها ، ص ٦٣ .

(٢) انظر : مخطوطة مجهولة المؤلف لقصة الإسراء والمعراج بدار الكتب المصرية فى مجموعة ، رقم ١٩٩٣ ، صفحة ١١٨ و١١٩ .

يمزج بينها ويخرج منها صورة النسر الرائعة التى فتنت ومازالت تفتن قراءه ، خاصة وأن شكل النسر لم يغب عن هذه الصور الإسلامية ، ففى الفصل الخامس عشر من مخطوطة المعراج نرى الرسول يشهد فى السماء الرابعة : « سبعين ألف ملك لهم وجوه النسور ، ولكل واحد سبعون ألف جناح ، وبكل جناح سبعون ألف ريشة » بديعة الألوان والأضواء ، أما الأناشيد السماوية التى تنبعث من أفواه هذه الملائكة فهى عنصر مشترك بينها جميعًا .

٨ - صورة الثلج والنار :

بدت أرواح الطوباويين لدانتى فى الفردوس هكذا :

« كانت وجوههم جميعًا مصوغة من شعلات ساطعة
وأجنحتهم من ذهب ، وكان سائرهم ذا بياض
لا يبلغ الثلج حده أبدا »[١] .

وفى معظم روايات الإسراء والمعراج نجد بعد صورة الديك مباشرة هذا الوصف :

« ثم تقدمت أمامى ، وإذا أنا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار ، يسبح ويقول : ياموئلف ما بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك ، والملائكة يقولون آمين ، فلا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج »[٢] . ويرد ذكر هذا الملك فى مخطوطة المعراج المترجمة مرتين كذلك عقب ذكر الديك فى الفصلين التاسع والتاسع والعشرين .

وإذا كانت هذه الصورة عند دانتى مجرد تشبيه للأرواح بأن بياضها أنصع من الثلج بالرغم من اشتعالها فإنها تتميز فى النصوص الإسلامية بقوام تشكيلى بديع أكثر فتنة وشاعرية وأحفل بالمعنى إذ تستغل هذه الصورة لتجسيد التلاقى بين الأضداد مما يكشف عن قدرة الله فى العباد ويدل على عظمته التى تتجلى فى شكل مخلوقاته ومعناهم أيضًا .

٩ - رؤية الكون مصغرا :

من المشاهد المتميزة فى الفردوس أن دانتى عندما وصل بصحبة بياتريش إلى قمة سماوات الأفلاك ، إلى منازل الكواكب الثابتة ، دعته هاديته أن يتأمل المشهد قبل أن

---

(١) انظر : الفردوس : انشيد ٣١ أبيات ١٣ - ١٦ من الطبعة المشار إليها .
(٢) انظر : مخطوطة الإسراء والمعراج المشار إليها بدار الكتب المصرية رقم ١٩٩٣ .

يواصل رحلته ، كى يجرب نظرته النافذة ، ويرجع البصر إلى أسفل ، ويحاول رؤية العوالم التى تركها من خلفه . ويصف دانتى ذلك عند وصوله إلى السماء الثامنة قائلا :

« قالت بياتريش ، ينبغى أن تكون ثاقب العينين صافيهما .
ولذلك قبل أن تمضى إلى الداخل مزيدا ، فلتنظر إلى أسفل ..
ولترَ أية دنيا شاسعة صارت الآن تحت قدميك .
فعدت بناظرى إلى الأفلاك السبعة كلها جميعًا ، فرأيت هذه الكرة
على حال جعلتنى أضحك من ضئيل مرآها .
وأظهرت فى الأفلاك السبعة كلها ، كم هى شاسعة
وكم هى سريعة ، وكم تتباعد منازلها » ..

وبينما كنت أدور مع التوأمين الأزليين ، بدا لى البيدر الصغير الذى يحيلنا وحوشًا ، بدا لى مكتملا من مرتفعاته إلى مصبات أنهاره[١] .

ولنقارن هذا بما نجده فى قصة المعراج عندما وصل الرسول بصحبة جبريل إلى السماء الأخيرة ، وأخذ يتأمل عظمة العرش الإلهى التى لا حد لها ، مقارنًا إياها بعوالم الأفلاك والسماوات التى عدها فى معراجه قائلا :

« فإذا ما رأيته من الخلق كله قد تصاغر ذكره وتهاون أمره واتضع خطره عند العرش ، وإذا السماوات السبع والأرضون السبع ، وأطباق جهنم ودرجات الجنة وستور الحجب والنار والبحار والجبال التى فى عليين وجميع الخلق والخليقة إلى عرش الرحمن كحلقة صغيرة من حلق الدرع فى أرض فلاة واسعة تيماء لا تعرف أطرافها »[٢] .

ثم يقول أيضًا :

« فإذا إلهى قد ثبت بصرى لرؤية نور العرش وما تحت ذلك من عجائب خلق ربى إلى منتهى الأرض ؛ أرى ذلك كله بعضه من تحت بعض » .

فهذه الرؤية الشاملة للكون وقد تضاءلت عظمته وهان شأنه بجوار ما رأى من نور ربه هى نفسها التى وجدناها من قبل عند دانتى ، وهى نفسها التى نعثر عليها فى قصة المعراج المترجمة فى موضعين ؛ أحدهما فى الفصل الثامن والعشرين إذ يقول « ولما عدت

---

(١) انظر : الفردوس ، ترجمة الدكتور حسن عثمان ، النشيد ٢٢ أبيات ١٢٤ – ١٥٣ .
(٢) انظر : اللآلىء المصنوعة للسيوطى ، الطبعة المشار إليها ، الجزء الأول ص ٧٣/ ٧٤ .

من هناك – أى من سماء العرش – حملنى روح الله عبر السماوات كلها وهو يرينى فى لحظة ما لا يرى إلا بعد تمهل طويل ؛ فرأيت السماوات والأرضين السبع والملائكة دفعة واحدة » وفى مشهد آخر ، فى الفصل الثامن والستين يقول « ولما سألت جبريل عما إذا كانت كل تلك السماوات والأرض التى ذكرت متصلة فيما بينها أو منفصلة قال لى إنه ينبغى أن أرجع النظر لأرى مرة أخرى كل ما رأيته حتى أدركه على وجه الإحاطة »[١] .

١٠ – الوردة الطوباوية وشجرة طوبى :

فإذا أخذنا فى تحليل العناصر الوصفية لمقر الأرواح الفعلى فى الجنة وجدنا أنها تتركز فى الأناشيد الأخيرة من الفردوس ؛ حيث ينبع نهر النور الإلهى ويتسع فى صورة دائرية « يصبح محيطًا بالنسبة للشمس نطاقًا ذا اتساع شاسع » وتنتظم الأرواح فوق هذا النور وحواليه منعكسة فى أكثر من ألف طبقة « وإذا كانت أدنى المراتب من هذه الوردة تضم هذا النور العظيم فكيف يكون اتساعها عند أوراقها العليا ؟ » مما يشكل وردة أبدية تمتد وتتدرج اتساعًا فى الأطراف وضيقًا فى القلب .

على أن كل دائرة من تلك الدوائر تتكون من مقاعد ودرجات وعروش نورانية ، كما تقع على نفس المستوى وتوازيها دوائر أخرى أصغر منها محيطًا كلما اقتربت من وسط الدورة ، وكل ورقة منها مقعد فى الجنة[٢] ، وكل مجموعة من المقاعد النورانية دائرة سماوية طوباوية .

وإلى جانب هذا الرمز الأساسى يقارن دانتى أيضًا هذا المقام بمملكة يلتف حولها المختارون ، أو بستان أو هضبة علوية رفيعة ، ليتأملوا البهجة الأبدية للنور الإلهى ، ولكن أمثال تلك التشبيهات عارضة فى وصفه الذى يتكئ أساسًا على الوردة الصوفية المشكلة من الصورة الواقعية للدوائر السماوية الطوباوية .

والبنية الأخيرة الناجمة عن توزيع أرواح الطوباويين على مختلف الدوائر ترتكز على أساس صلب من الوجهة المعنوية يوازى نظامها الهندسى كما سبق أن ذكرنا عند الحديث عن شكل الفردوس ؛ فدرجة ارتفاع المقاعد ووضعها على اليمين أو الشمال داخل كل

---

(١) انظر الوثيقة المترجمة المنحفة فى هذا الكتاب ، الفصول ٢٨ – ٦٨ .

(٢) انظر : الرسم التوضيحى لوردة الطوباويين فى الجنة ، الفردوس : ص ١٣٢ .

دائرة يخضع لقانون ثابت ؛ فلا شيء هناك يتم بالصدفة أو اعتباطًا ، بل إن طبيعة الإيمان ودرجة الولاية يحددان مقام كل من الطوباويين .

ويقيم دانتى تفرقة أساسية عمودية تخترق كل الدوائر وتقسمها إلى مجموعة اليمين ومجموعة اليسار حيث يقطن أتباع العهدين الجديد والقديم على التوالى ، وتنقسم كل مجموعة إلى مراتب دقيقة طبقًا لاعتبارات تتصل بالعمر والجنس ودرجة الولاية كما سبق أن شرحنا عند الحديث عن التماثل بين الشكل الهندسى للجنة فى التراث الإسلامى – خاصة عند ابن عربى – ووردة الطوباويين عند دانتى .

بيد أن العنصر الجديد الذى نضيفه الآن ، والذى يعزز هذه العلاقة ويجسدها ، هو تحليل ما ورد فى الآثار الإسلامية عن شجرة خاصة قريبة الشبه بهذه الوردة وتلتقى معها فى الوصف وهى شجرة طوبى التى يأتى ذكرها فى بعض الأحاديث على النحو التالى :

« قال رسول الله ﷺ : إن طوبى شجرة فى الجنة ، أصلها دارى وأغصانها مطلة على قصور الجنة ، فليس فى الجنة قصر ولا دار إلا وعليها غصن من أغصانها ، يحمل كل غصن منها كل ثمرة كانت فى الدنيا ، وكل زهر كان فى الدنيا ينبت فى ذلك الغصن إلا أنه أكثر وأفخر من ثمر الدنيا وزهرها .. ولكل مؤمن فى الجنة غصن من أغصانها كتب اسمه عليه »(١) .

وقد تختلط هذه الشجرة فى الآثار الإسلامية بشجرة العرش التى روى فيها عن كعب الأحبار « أن الله تعالى خلق شجرة تحت العرش عليها أوراق بعدد كل مخلوق ، وإذا قضى أجل العبد وبقى له من عمره أربعون يومًا سقطت ورقته على حجر عزرائيل فيعلم بذلك أنه أمر بقبض روح صاحبها »(٢) .

ويتصور ابن عربى هذه الشجرة الطوباوية وقد أظلت بأوراقها وأزهارها كل بيوت الجنة ، وجذورها ممتدة إلى سماء المحرك الأول – لأن أصلها دارى كما ورد فى الحديث السابق وداره ليست أسفل الجنة بطبيعة الحال – أى إلى سقف الجنة .

وهى لذلك شجرة مقلوبة تمتد أوراقها لكل الجنان السبعة الدائرية ، ومعنى هذا أننا لو أردنا رسم هذه الشجرة طبقًا لدوائر الجنة عند ابن عربى لوجدنا أن كل غصن منها لابد له أن يملأ واحدًا من مقاعد المنازل السبعة الهائلة ، وأن أوراقها لا حصر لها وأن

---

(١) انظر : قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى الليث السمرقندى . طبع صبيح بالقاهرة . ص٣٧ .

(٢) انظر : دقائق الأخبار فى ذكر الجنة والنار للقاضى ، طبع الحلبى بالقاهرة ص ٧ .

هيكلها الذى ينجم عن التوافق مع الدوائر السبع المكونة من صفوف من الأوراق لابد وأن يكون فى نهاية الأمر مثل هيكل الوردة عندما نتأملها مواجهة .

ويبدو أن شجرة طوبى هذه بوضعها المقلوب لم تكن مجهولة لدى دانتى ولا بعيدة عن تصوره ، فهو يصف النجوم الفلكية والمنازل الفردوسية بطريقة مشابهة لشجرة هائلة مقلوبة يحتل كل واحد من أغصانها سماء فلكية ويستمد غذاءه – لا من تحت مثل الأشجار الأرضية – وإنما من أعلى ، أى من سماء الامبريوم . وعندما يصل دانتى إلى سماء المشترى يشير إلى هذا التصور للفردوس الماثل فى خياله كشجرة مقلوبة بقوله :

« وبدأ فى هذه الطبقة الخامسة من الشجرة
والتى تستمد الحياة من ذروتها وتثمر الفاكهة دومًا
ولا تفقد أوراقها أبدًا »[١] .

كما تتصل شجرة طوبى هذه فى التراث الإسلامى أيضًا بسدرة المنتهى وبشجرة الخلد ، ومن أوصافهما « أن الله تعالى غرسها بيده ونفخ فيها من روحه وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة ، وما فى الجنة نهر إلا ويخرج من أصل هذه الشجرة » وفى رواية أخرى أن الرسول قال « لما رفعت إلى شجرة المنتهى فى السماء السابعة رأيت نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة ، يخرج من ساقها نهران ظاهران باطنان »[٢] .

وتصب كل هذه الروايات فى قصة المعراج المترجمة التى كانت فى متناول دانتى على شكل وصف مركز لما يسمى هناك بشجرة الفردوس التى تقوم بين سماء العرش والسماء السابعة حيث ينهض جبل قاف ، ويتفرع منها سبعة عشر فرعًا تمتد نحو السمارات السفلى حيث تعتمد عليها وينفذ أعلاها إلى السماء الثامنة دون أن يمسها ؛ وبهذا يتبين أن هذه الصورة الإسلامية لم تفقد تأثيرها على خيال الشاعر الإيطالى الكبير .

هذا فيما يتصل بشكل الوردة ، أما من ناحية التسمية فهى ليست غريبة على التراث الإسلامى ، فالآية القرآنية الكريمة المتصلة بالحياة الآخرة تقول « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » قد أثارت كثيرًا من التأويلات لشرح مدلول هذه الوردة ، وانتقل هذا الشرح إلى المجالات الصوفية الرمزية ، وحفلت به كتب الرقائق فى العصور الوسطى بما لا نظير له فى التراث الكلاسيكى الأوربى قبل انتشار الآثار الإسلامية ، وفى مقابل

---

(١) انظر : الفردوس ، الترجمة المشار إليها ، نشيد ١٨ ، أبيات ٢٨/ ٣١ .
(٢) انظر : مختصر تذكرة القرطبى للامام الشعرانى ، ص ١٤٠ .

هذه الوردة الطوباوية برزت فى القصص التالية وردة أخرى حمراء رمز فينوس الجسدية أو الحب الشهوانى المتصل بالجحيم ، ويرى بعض الباحثين أن هذه الوردة الثانية مدينة هى الأخرى لبعض عناصر الأدب العربى مثل قول المعرى فى « سقط الزند » .

فإذا الأرض وهى غبراء صارت من دم الطعن وردة كالدهان[١]

ونعود إلى وردة دانتى لنراها تتراءى فوق نهر النور الذى يقول عنه :

« وفى صورة نهر رأيت نورًا يتلألأ فيه الضياء ، بين ضفتين
مزدانتين بربيع عجيب رائع
ومن ذلك النهر خرجت شرارات ساطعة وانتظمت
بين الأزهار فى كلا الجانبين ، وكأنها اليواقيت فى حلقات من ذهب
ثم ألقت بأنفسها فى تلك الأمواج الرائعة
كأن قد أسكرها الشذا »[٢] .

ولا نجد مثيلا لنهر النور هذا إلا فى التراث الإسلامى حيث يرد ذكره فى أشكال مختلفة فى قصة المعراج ، نكتفى منها بهذه الرواية :

« ثم جاوزناهم بإذن الله متصعدين إلى عليين حتى ارتفعنا فوق ذلك
فانتهينا إلى بحر من نور يتلألأ لا يرى له طرف ولا منتهى
فلما نظرت إليه حار بصرى دونه حتى ظننت أن كل شىء من
خلق ربى قد امتلأ نورًا والتهب نارا »[٣] .

مما يؤكد لنا أن الإطار العام لصورة دانتى الرئيسية فى الفردوس والتفصيلات الدقيقة لكثير من ملامحها التشكيلية لا يمكن فهمها بعمق دون تحليل العناصر المناظرة لها فى التراث الإسلامى الذى أخصب خيال الشاعر الإيطالى العظيم وألهمه أجمل رؤاه وصوره .

---

(١) انظر : على هامش الغفران للدكتور لويس عوض . القاهرة ١٩٦٦ ص ١٧٤ . ورد الأستاذ محمود شاكر عليه فى (أباطيل وأسمار) ص ٩٩ - ١٠٣ .

(٢) انظر : الفردوس ، الترجمة المذكورة ، نشيد ٣٠ أبيات ٦١/ ٦٩ .

(٣) انظر : اللالىء للسيوطى ، الجزء الأول من الطبعة المشار إليها ص ٦٩ .